

المحاضرة الأولى: تطور علم النفس

تمهيد:

لم يعد علم النفس وفقا على المختص به، ولم تعد الحاجة إلى علم النفس مقتصرة على أفراد أو فئات معينة، إن علم النفس يهم كل إنسان. فقد تساءل الإنسان منذ أقدم العصور عن الطبيعة الإنسانية وقد طرح وما يزال يطرح أسئلة مثل ما الذي يجعلني أتصرف على هذه الصورة أو تلك؟، ما معنى الأحلام؟ ولماذا يختلف بعض الأفراد عن البعض الآخر؟. إن الإجابة على هذه الأسئلة تزامنت ومراحل تطور الفكر الإنساني من الخرافة، للفكر الفلسفي الميتافيزيقي وصولا إلى التفكير العلمي.

1- مرحلة التفكير الخرافي في تفسير السلوك الإنساني:

ونميز في هذه المرحلة ما يلي:

- تفسير المنجمون القدامى حيث كانوا يستطلعون السماء بحثا عن إجابات، فموقع النجوم في برهة الولادة يحدد طبع الطفل الوليد.
 - استطلاع الهيئة حيث كان بعض القدامى يعتمدون مظهر الفرد الخارجي أو هيئته للتنبؤ بطبيعته.
 - دراسة الأرواح الشريرة حيث كان بعض القدامى يفسرون من خلالها السلوك غير السوي.
- وما ميز هذه المرحلة، اهتمام القدامى في تفسير السلوك الإنساني، حيث كانوا يتحدثون بشكل أو بآخر في موضوعات نفسية ويدلون بأراء فيها، بعضها صحيح مستند إلى الخبرة وبعضها خاطئ مستند إلى الوهم أو الخرافة، وهذا ما أدى إلى بروز حاجة ملحة للمصطلحات العلمية في علم النفس.

2- مرحلة التفكير الفلسفي في تفسير السلوك الإنساني:

لقد لفتت الظواهر النفسية أنظار الفلاسفة منذ القدم، وقلما وجد فيلسوف لم يكن له في البحث عن النفس وطبيعتها أثر، وذلك رغبة منهم في الوصول إلى القواعد الخلقية التي ينبغي للإنسان إتباعها في حياته وكان تحليلهم للأمور النفسية عميقا. لكن كانت أبحاثهم ذات غايات فلسفية مما جعلهم لم يتوصلوا إلى تأسيس علم النفس على دعائم علمية ثابتة، لأن أفكارهم كانت خليطا من الخيال والحقيقة.

فالفلاسفة لم يحرروا علم النفس من التصورات الخيالية والمبادئ الفلسفية، ذلك لأن مشاهدتهم للظواهر النفسية ووصفهم لها لا كما هي في الواقع، بل يشاهدونها كما يجب أن تكون بالنسبة إلى غاياتهم الفلسفية. وهذا كله أدى إلى تأخر استقلال علم النفس عن الفلسفة، ولا يمكن انفصاله عنها إلا إذا تقيد بالواقع وصارت مسائله خاضعة للمشاهدة والملاحظة والتجربة.

ونميز في هذه المرحلة بين فئتين من الفلاسفة، الفلاسفة الروحيون والفلاسفة التجريبيون:

2-1 وجهة نظر الفلاسفة الروحيون:

كان الفلاسفة الروحيون يؤسسون علم النفس على المشاهدة الداخلية باستخدام طريقة الاستبطان كمنهج لدراسة الظواهر النفسية، وكانت النفس أو الروح موضوع دراستهم.

على سبيل المثال، فصل أفلاطون بين النفس والجسد وأعتقد أن النفس من طبيعة روحية وهي خالدة ولا تغنى بفناء الجسد، وأن الجسد من طبيعة مادية وينتمي لعالم المحسوسات الزائلة، كما وحد أفلاطون بين النفس والأفكار موجودة وجوداً قليلاً سابق على الحياة المادية.

كما اهتم أرسطو بتحليل عميق لكثير من الظواهر النفسية كالإدراك والذاكرة مستعينا في ذلك بمنهج الاستبطان، غير أن أبحاثه كانت بعيدة عن العلم ومتصلة أكثر بغرض فلسفي. وقد ألف كتاباً عن النفس (Traite de L'âme)، ويرى أرسطو أن النفس جوهر الإنسان وسبب حياته، وهي مجموعة الوظائف الحيوية التي يقوم بها الكائن الحي، فالنفس والجسم يكونان جوهرًا واحدًا لا يمكن فصلهما وبمعنى آخر النفس لا يمكن أن يكون لها وجود مستقل عن الجسم.

2-2 وجهة نظر الفلاسفة التجريبيون:

بينما كان الفلاسفة التجريبيون (Empiristes) من علماء الطبيعة والأطباء يستندون في أبحاثهم النفسية إلى طريقة المشاهدة الخارجية، لأن للظواهر النفسية آثار خارجية يمكننا مشاهدتها كما يمكننا مشاهدة الظواهر الطبيعية. وترى هذه الفئة ضرورة فصل علم النفس عن علم ما بعد الطبيعة وتأسيس علم النفس على الملاحظة، والمشهورين من هذه الطائفة جون لوك (John Locke) دافيد هيوم (David Hume) وجيمس ميل (James Mill) وهربرت سبنسر (Herbert Spencer) وغيرهم.

على سبيل المثال، تحدث جون لوك (John Locke) في كتابه "الذهن البشري" (1690) أنه سيتبع في دراسة النفس مبدئين:

1. أن يجعل نفسه موضوعاً لمشاهدته.
 2. أن تكون حاله في المشاهدة كحال المشاهد الطبيعي البسيط.
- ولم يكن هدف جون لوك البحث في حقيقة النفس وماهيتها بل كان يريد أن يوضح كيف تتولد التصورات العقلية المركبة من الصور النفسية البسيطة، وفي ذلك يرى أن مهمة علم النفس هي تحليل العمليات العقلية إلى عناصرها من إحساسات، وحركة، وصور ذهنية، ومعانٍ وذلك عن طريق التأمل الباطني.
- كما وضع دافيد هيوم (David Hume) في كتابه "مباحث في الذهن البشري" أنه يمكن تحليل جميع الظواهر النفسية بإتباع الطريقة الذاتية في الملاحظة والبحث والتحليل.

3- مرحلة التفكير العلمي في تفسير السلوك الإنساني:

علم النفس ظل متصلا بالفلسفة إلى أن جاء العصر الحديث، وبدأت العلوم على اختلاف أنواعها تتبذ الاتجاه الفلسفي وتميل إلى المشاهدة والتجربة، ومن جراء ذلك تحرر علم النفس من الفلسفة وأصبح علما قائما بذاته له مكانته بين العلوم الطبيعية. وقد أسهمت إلى جانب الفلسفة عدة علوم في نشأته واستقلاله منها الأحياء والفسولوجيا علم والعلوم الطبيعية والطب العقلي... الخ.

3-1 أثر علم الأحياء:

يعد داروين (Darwin) من رواد هذا العلم الذي أسهم بنصيب وافر في تطور الفكر السيكولوجي، فنظريته في النشوء والارتقاء التي أوردتها في كتابه " أصل الأنواع (1858) حيث أكد على أهمية الوراثة وصراع البقاء التي تركت أثارا واسعة على علم النفس. ومن أهم ما جاء به داروين مايلي:

- يرى أن الجسم الإنساني قد خضع لسلسلة من التطورات، والعقل هو وسيلة للوصول إلى تلاؤم الفرد مع المحيط القاسي ويكتسبه بالتجربة.
- يرى أن الفرق بين الإنسان والحيوان هو العقل الذي يعد أكبر فاصل بينهما، فرق في الدرجة لا فرقا في النوع، وأن هذا الفرق يرجع إلى طبيعة الدماغ. أي أن الإنسان مخلوق محكوم بالعقل وأن الحيوان مخلوق محكوم بالغرائز.

وكان لهذه الأفكار صداها في إمكان دراسة الطبيعة الإنسانية بدراسة السلوك الحيواني، وبالتالي تأكيد أهمية الطرق الموضوعية في دراسة علم النفس، وقد وضع داروين بذلك الأساس لعلم النفس الحيواني.

3-2 أثر الفسيولوجيا:

بحث الأطباء الفسيولوجيين في علاقة النفس بالجسد منهم ديكارت ومالبرانش وهارنلي وكادانيس (Cadanis)، وأدت أبحاثهم لوضع الأساس لما يسمونه بالسيكوفسيولوجيا (Psychophysiology).

فعلى سبيل المثال فقد ميز ديكارت بين النفس والجسم، واعتبر كلا منهما منفصلا عن الآخر. فجوهر النفس قائم في التفكير، وجوهر الجسم قائم في الامتداد وهو يشغل حيزا من الفراغ. أما العلاقة بينهما فعلاقة تفاعل ميكانيكي يحدث في الغدة الصنوبرية أسفل المخ. كما أن العقل خاص بالإنسان دون الحيوان ووظيفته التفكير والشعور. وأطلق عليه اسم المادة المفكرة، والتفكير في نظر ديكارت هو كل ما ينطوي تحت النشاط الشعوري من الناحية العقلية، ويقصد بالشعور ما يجده الفرد في نفسه من أحوال السرور والألم، أو الرضا والسخط أو الميول والرغبات.

3-3 أثر القياس والتجريب وتأسيس المخابر:

أما علماء الطبيعة فقد أرادوا أن يطبقوا في علم النفس طريقة العلوم الطبيعية في التجريب والقياس، فأسسوا لهذا الغاية مخابر نفسية، واستبدلوا في مباحثهم الطريقة الكيفية بالطريقة الكمية. وهنا أخذ البحث في علم النفس

ينجيه نحو الملاحظة العلمية وإجراء التجارب المخبرية في دراسة المسائل النفسية باستخدام طرق الكم والقياس والتجريب. وبذلك أخضع علم النفس الظواهر التي يدرسها لمناهج موضوعية مستعينا بالآلات والأجهزة والاختبارات، كما أصبحت التجارب هي قوام البحث في هذا العلم.

على سبيل المثال، يعتبر وويلهلم وندت (Wilhelm Wundt) أول من أسس مخبرا نفسيا في أوروبا عام (1879) حيث اهتم بدراسة الإحساسات والتمييز بينهما، الإدراك والانتباه، وزمن رد الفعل. ثم زاد انتشار هذه المخابر بعد ذلك في ألمانيا والولايات المتحدة وفرنسا.

وأول من فكر في تأسيس علم نفس كمي هربارت (Herbart)، فيرى أن ظواهر الحياة الداخلية خاضعة لقوانين النفس كخضوع ظواهر السماء لقوانين الفلك، وأنه ينبغي أن تنطبق على دراستها طريقة العلوم الطبيعية، وذلك بقياس مقاديرها وكمياتها. وقد اتبع هذا المنوال من بعده كل من فيبر (Weber) وفيشنر (Fechner) فوضع هذا الأخير طريقة لقياس الإحساس. وحذا حذوه في ذلك علماء مدرسة فيرزبورغ (Wurzbourg) الألمانية، منهم سيمون (Simon) حيث صمم مع ألفرد بنيه (Alfred Binet) سلما متريا لقياس الذكاء.

3-4 أثر دراسة الأطفال:

ولم يكتف علماء النفس بدراسة الأحوال النفسية في الإنسان الراشد، بل وسعوا دائرة بحثهم وتناولوا دراسة الطفل منها أعمال Alfred Binet، Piaget وغيرهم، كما اهتموا بدراسة الفروق بين الأجناس البشرية، فوجدوا أن الأحوال النفسية تختلف باختلاف السن والجنس والجماعات.

3-5 أثر علم الاجتماع:

وقد بين علماء الاجتماع ما للبيئة الاجتماعية من تأثير في نفس الفرد، فبحثوا في التأثيرات المتبادلة بين الأفراد، وفي ذلك آراء جبريل تارد (G- Tarde) في التقليد، فقد ألف كتابا في قوانين التقليد بين فيه كيف يتم تأثير النفوس بعضها في بعض.

3-6 أثر علم الطبيعة:

كما توجه علماء الطبيعة إلى دراسة طبائع الحيوانات وغرائزها وقابلوها بعادات الإنسان، وأسسوا فرعا لعلم النفس سموه بالسيكولوجية المقارنة (Psychologie Comparée). وطريقتهم في هذا البحث طريقة موضوعية خارجية.

اقتصر علماء الطبيعة على دراسة ظواهر سلوك الحيوان وما يبدو من أفعال وغرائز، ذلك أن فهم شعور الحيوان غير معلوم والنفوذ إليه غير ممكن. وهذا ما أدى إلى ظهور سيكولوجيا السلوك وهي طريقة يوصل بها إلى معرفة سلوك الحيوان وردود فعله الناشئة عن تأثير العوامل الخارجية.

أول من قام بهذه الطريقة هو كسلي (Huxley) ثم اتبعه بافلوف، ثورنديك وميكنر وواطسون (Watson) ومدرسته التي سميت بالمدرسة السلوكية.

على سبيل المثال، أشار واطسون في كتابه السلوك ما يلي: "علم النفس كما يراه السلوكي، فرع موضوعي وتجريبي محض من فروع العلوم الطبيعية، هدفه النظري التنبؤ عن السلوك وضبطه، وليس الاستبطان والتأمل

الباطني قسما هاما من طرائقه. كما أن القيمة العلمية للمعلومات التي يحصل عليها ليست متوقفة على إمكان تفسيرها بالشعور...ويبدو أن الوقت قد حان ليتخلص علم النفس من كل إشارة إلى الشعور ومن ملاحظة الحالات النفسية، أي أن علم النفس كعلم ينبغي أن يؤسس على ما يمكن أن يلاحظ ملاحظة موضوعية.

3-7 أثر الطب العقلي:

إن اهتمام الأطباء بالأمراض النفسية أدى إلى تأسيس فرع نفسي سماه العلماء بعلم الأمراض النفسية (Psychologie pathologique)، ولهذا الفرع تأثير كبير في تطور علم النفس، صنف إلى ذلك فإن استخدام طرق التنويم المغناطيسي والتحليل النفسي قد أظهرت مباحث جديدة في الظواهر النفسية. على سبيل المثال، استخدم شاركو (Charcot) طريقة التنويم المغناطيسي في دراسة الأمراض العصبية، وكذلك برنهايم (Bernheim) وغيرهم.

أما طريقة التحليل النفسي فقد أيدعها سيجموند فرويد (S-Freud) النمساوي أحد تلاميذ شاركو، وهي طريقة تتضمن النفوذ إلى أعماق اللاشعور بدراسة الأمراض العقلية، ودراسة الأحلام. وخلاصة التحليل النفسي أن هناك ميولا ورغبات كامنة في أعماق النفس لا يشعر بها الإنسان ولكنها تؤثر في حياته دون أن يشعر بها سماها فرويد اللاشعور.

ويمكننا في النهاية أن نعرض ما قام به ريبو (Ribot) من خلال تأليف مجموعة من الكتب منها علم النفس عند الانجليز، وعلم النفس عند الألمان، أورد فيهما رأيه في ضرورة استقلال علم النفس عن علم ما بعد الطبيعة، حتى لقد قال في مقدمة كتاب علم النفس "لا فرق بين العالم النفسي والعالم الطبيعي لأن العالم النفسي يتبع في مباحثه طريقة العلوم الطبيعية فيلاحظ الظواهر الداخلية ويصفها ويصنفها ويتحرى أسبابها وشروطها". بعدما تطرقنا لتطور علم النفس ونظرنا في تاريخه، مما يجعلنا نتساءل ما موضوع دراسة هذا العلم وما هي الظواهر التي يتناولها للدراسة؟